
ومضة أمل
لمن سئل عن الثبات
في زمن المتغيرات
إعداد
فاتن الصويلح
مصدر هذه المادة :
الكتيبات الإسلامية
www.ktibat.com


دار الوطن للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الإنسان فصوره فأحسن صوره، الحمد لله الذي يعطي العطاء لمن يشاء، وينزعه سبحانه ممن يشاء، الحمد لله الذي بقدرته يعز من يشاء، ويذل بقدرته من يشاء، يبتلي عباده فيختبر، وعلى قدر الصبر يثيب ويهب الأجر تفضلاً منه جل شأنه، وإنعامًا.. والصلاة والسلام على من ببعثته أخرج الله العباد من ضيق الدنيا وظلمتها إلى سعة كلها أمل ونور وعطاء رباني صلاة الله وسلامه على سيد الخلق أجمعين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ومن سار على هديه ولزم دربه وتلمس الأمل في حياة أفضل تحت ظل هذا الدين وأهله.. وبعد:

ومضة أمل إلى من سار على الدرب يرجو رضا الرحمن ويبتغي نيل الجنان.

ومضة أمل أهديها إلى من غيب في السجون وبكته العيون ونادته تلك الأم الحنون.

ومضة أمل لأولئك الذين يعيشون زمن المتغيرات ويغوصون في العقبات المهلكات وهم – وهن – يسألون رب العزة والجلالة الثبات.

ومضة أمل لنا ولكم يا من تسألون شد العضد والإعانة على الحق في طريق درب الهدى والتقى.

ومضة أمل أطلب بها رفيقًا على الدرب يعيد للأمة مجدها وثباتها

وعزها مهما أصابها من بلاء وفتنة.

أسجل هذه الومضة وأخواتها في زمن أرى فيه رفيق درب هدى يتلمس كلمات تخرج من القلب إلى القلب فتكون عونًا له.. نعم كلمات من القلب حتى ولو كانت من قليل علم.. حتى ولو كانت من قليل زاد وعتاد.. مهما كانت فيكفي يا رفيق درب الهدى أنها كلمات أسأل الله أن تكون صادقة.. كلمات أخاطب بها روحك.. أخاطب بها إيمانك الراسخ.. فهي كلمات طموحة أتدري يا رفيق درب الهدى بماذا تطمح هذه الكلمات؟

إنها تطمح أن تمتلك روحًا كروحك وإيمانًا برب العزة والجلالة كإيمانك.. ورغبة في خدمة هذه الأمة ولو بالقليل كبحار رغباتك التي لا تنتهي في طريق الدعوة إلى الله..

إنها ومضات أمل في طريق شائك، ولكن بالإيمان والصبر والثبات يكون ذلك الطريق بإذن الله طريقًا سهلاً ممهدًا.

وقبل أن تبحر ومعك ومضة من ومضات الأمل.

* تذكر أني قد أكون غيرك وأنت غيري، لكننا نحن الاثنان مشتركان في حمل هم الدعوة إلى الله.

تذكر أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها وما يدريك فعل من بين ثنايا الكلمات بإذن من رب السموات تجد بغيتك وتسد حاجتك وتشعل نور الأمل في طريقك.

تذكر يا رفيق درب الهدى أن المؤمن أخو المؤمن مهما تباعدت الأوطان واختلف موقع المكان.

إنني أطلب منك قبل أن تبحر ومعك ومضة من ومضات الأمل أن تتقبل نصحي فما جئت لأخاطبك إلا لعلمي إنك أنت – بعد الله – بدعوتك تهدي الأمة وترجع للنفوس الهمة حتى وإن قل شأنك وصغرت خدمتك حتى وإن حوربت وعذبت أو قتلت وطردت؛ فيكفي أنك بدعوتك تتلمس درب الهدى وتطلب من يعينك على الطريق ويضيء لك بعد الله طريق دعوتك.

الومضة الأولى:

بقدر ما تتعنى تنل ما تتمنى

يا رفيق دربي ويا سائرًا على الدرب نحوي امنحني عقلك قليلاً، وافتح لي قلبك كثيرًا، واجعل فيه فسحة لمقالي، ولترديد شيء من كلامي.. دعني أخاطب روحك، دعني أفك قيدها فما عادت تقوى على المسير كما كانت، والسبب أنك بت ترى العالم من حولك غريبًا موحشًا قاتلاً.. يبدد كيانك ويقتل طموحك ويدوس شيئًا من تضحياتك، قد يبدو لك هذا أو ذاك إلا أني أطلب منك أن لا تجزع!! أن لا تقنط!! أن لا تتراجع!! وضع هذه اللاءات الثلاثة أمامك.

أن الأماني الدعوية يا رفيقي كثيرة، والرغبات لأجلها متعددة، ونفس المؤمن تواقة للمعالي ولا ترضى بالدون، وهكذا يكون حال سائل الله الثبات فهو يسعى ويأمل ويرجو ويجاهد وكلٌّ في ميدانه الذي يكون فيه بلا تحديد.

هذه الأماني لا تنال بغير عناء، وما ارتضى أحد يا رفيقي المعالي إلا وهو يعلم علم اليقين أن الطريق لابد أن تبرز فيه العقبات، وهكذا يكون طريق الدعوة إلى الله وبقدر ما تتعنى تنل ما تتمنى، وكلما سمت روحك وصلح عملك ارتفع رصيدك في بنك الصبر والثبات وهذه سنة الله قال تعالى: **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾** [آل عمران: ١٤٢]، وقال تعالى: **﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ**

قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقال تعالى: **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾** [البقرة: ٢١٤].

يقول سيد قطب – رحمه الله -: «هكذا خاطب الله الجماعة المسلمة الأولى، وهكذا وجهها إلى تجارب الجماعات المؤمنة قبلها، وإلى سنته – سبحانه – في تربية عباده المختارين، الذين يكل إليهم رايته، وينوط بهم أمانته في الأرض، ومنهجه وشريعته.. إلى أن قال: إنه مدخر لمن يستحقونه، ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية؛ الذين يثبتون على البأساء والضراء، والذين يصدون للزلزلة. الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة، الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله؛ وعندما يشاء وحتى تبلغ المحنة ذروتها فهم يتطلعون فحسب إلى (نصر الله) لا إلى حل آخر ولا إلى أي نصر لا يجيء من عند الله ولا نصر إلا من عند الله[(١)].

ولتعلم يا رفيقي أنك داعية إلى الله «والداعية إلى الله لا يمارس هواية وإنما يؤدي رسالة ضخمة وليست رسالة جانبية أو محدودة إنها رسالة كاملة شاملة فهو معلم ومرشد، وحامل وحي، وناشر

---

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب صـ٢١٨.

ضياء، خطواته محسوبة ومقاييسها مقدرة»[١] ولماذا كل ذلك يكون، ولماذا لابد من العناء؟

لأنك يا رفيقي قد تخاطب أمة فئاتها متغايرة وصفحات عمرها ماضية على ما مضى عليه آباؤها وأجدادها.. إنك تخاطب أنفسًا منها من غلبته شهوته، ومنها من عاتبته نفسه، ومنها من كفر بنعمة ربه، فهل تتوقع أنك ستؤدي رسالتك وتؤتي ثمارك في لحظات معدودة أو أيام قليلة؟ ولو غالبتك نفسك بعجلة ترجو ثمارها فسلها يا صاحبي سؤالاً واحدًا ألا وهو هل كل قلوب عباد الله ستستجيب وتنقاد بغير بذل جهد وعناء؟ إن رسول الله ﷺ عندما وجه الصحابي الجليل معاذًا رضي الله عنه إلى اليمن لم يوجهه إلا بعد أن بين له حال من سيدعوهم إلى عبادة الله؛ بل وشرح له ﷺ كيف يدعوهم، وكيف له أن يسلك معهم طريق التدرج مبتعدًا عن العجلة ومحاولة تغيير أوضاعهم في فترة وجيزة فقال له ﷺ: «**إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عزَّ وجلَّ، فإذا عرفوا الله؛ فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم. فإذا فعلوا؛ فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم. فإذا أطاعوا بها؛ فخذ منهم، وتوق كرائم أموالهم**»[٢].

(1) الدعوة إلى الله ــ سعيد بن مسفر ص ــ١٢٣.
(2) رواه مسلم في كتاب الإيمان، الباب السابع، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام حديث رقم ٢٩، جــ١، صــ٥٠.

وهنا ومضة الأمل تدعوك إلى الصبر وإلى المجاهدة وتذكر أن النفس المؤمنة قد تفتر لكنها سرعان ما تعود لتعلو، ولتعلم أن العناء في بدايته طريق للانطلاق من حياة الدعة والراحة إلى حياة الاستعلاء والجنوح إلى الأفضل والتطلع إلى ما عند الله، وتذكر أن إخلاص العمل والمتابعة للرسول ﷺ مقدم على بذل العناء والجهد.

الومضة الثانية:

لا يضرك خذلان المتخاذلين

يا رفيقي قد أكون أنا واحدة من أولئك الذين خذلوا الأمة بأعمالهم ورجوعهم عن الحق -وأسأل الله أن لا أكون منهم- قد أكون أنا يا أخي من أولئك الذين يدندنون بما لا يفقهون، ويقولون ما لا يعلمون، ويحشرون أنوفهم فيما لا يعلمون، قد أكون أو لا أكون؛ لكنك أنت أنت يا رفيقي غير ذلك، فأنت إن كنت على قمم الجبال تجاهد وتناضل، أو على المنبر تخطب وتجلجل، أو بين الناس تدعو وتأمل؛ فأنت أنت غيرهم، دعهم يقولون ما يقولون؛ فأنت شيء فريد من نوعه ويكفي أنك داعية إلى الله ترجو الثواب وتخشى أليم العقاب.. أنت بإذن الله من أولئك الذين سيعيدون مجدًا وماضيًا بعيدًا..

إذًا فمهما خذلك المتخاذلون؛ فثق بالله واستعن به وتوكل عليه **﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾** [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

وإياك والتعلق بغير ربك فإنك «في كل طرفة عين محتاج إلى توفيق الله تعالى، وإعانته لك، فعليك بالالتجاء إليه سبحانه على

الدوام، وسؤاله أن يعينك»[1] وإياك إياك أن يرهبوك، وعن درب نبيك يصدوك..

دعهم يقولون: إرهابي، وأصولي، رجعي، ووهَّابي، دعهم يقولون ما يقولون إن كنت تعلم أنك على الحق سائر، وعلى درب الهدى لا تحيد، ولتعلم أن ومضة الأمل هذه تدعوك إلى أن تسلك طريق الثابتين وتقف سدًّا منيعًا أمام المتخاذلين.

كما أن هذه الومضة تحذرك من أن تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير **﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾** [محمد: ٣٨].

---

(1) المشوق إلى ذكر الله، أبي عبد الله محمد الرملي جـ٥٨.

الومضة الثالثة:

لابد من الغربة ومن ألم العزلة والوحدة

أعلم أنك تعاني في زمن المحنة، وتشعر بألم الغربة سواء كنت على أرضك أو لم تكن لكنني أطلب منك..

أطلب منك أن تبكي؛ فلعلك قصرت أو أهملت..

أطلب منك أن تراجع نفسك؛ فلعلك أخطأت وتجاوزت..

أطلب منك أن تعيش في حدود يومك وأن تعمل لآخرتك فما بقي لعله أقل ممَّا مضى.

قد تؤلمك الغربة.. غربة الذات.. غربة الأهل.. غربة الدين، ولكن متى ما شعرت بذلك؛ فعد إلى الوراء.. نعم عد إلى الوراء.. وتعال معي لنقلب التاريخ، ولن أقول لك اصعد معي إلى المريخ حتى تستريح.. لا.. بل قلب التاريخ.. اقرأ عن أنبياء الله وحالهم وكيف هي هجرتهم ورحيلهم عن أوطانهم.

اقرأ قصة إبراهيم عليه السلام.. قصة موسى.. قصة عيسى.. قصة لوط.

يقول الشيخ محمد الخضري – رحمه الله – في ذلك: «كلهم على عظيم درجاتهم ورفعة مقامهم أهينوا من عشائرهم فصبروا ليكونوا مثالاً لمن يأتي بعدهم من متبعيهم في الثبات والصبر على المكارم ما دام في طاعة الله»(١).

---

(1) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين الشيخ محمد الخضري. تخريج وضبط إبراهيم علي صـ٩٨.

اقرأ في سيرة الحبيب المصطفى محمد ﷺ وصحبه.. كم ذاق محمد ﷺ وصحبه ألم الغربة ولسعة الوحشة؟! فهاجروا وتركوا موطنهم وأحب البلاد إلى قلوبهم، هاجروا من مكة لأجل هذا الدين.. وقد تقول يا رفيقي: إنكِ تنطلقين من حيث لا تشعرين، وتكتبين وأنت لا تعرفين، ماذا يعني البعد عن الأهل والإخراج من الوطن؟! ماذا يعني أن يشعر المسلم بغربته في دينه فيضطهد ويعذب ويشرد؟! نعم قد تقول ذلك وإني لا ألومك فإن هذا «الأسلوب يؤثر على بعض النفوس، إذ لا يستطيع كل إنسان أن يصبر على نار الفرقة، والبعد عن الزوجة، والأولاد، والأهل، والأقارب، والأصدقاء، والأوطان»(١) نعم قد يؤثر ذلك على بعض النفوس إلا إنني أرجو أن لا تكون أنت منهم..

إنني أدعوك إلى الصبر والتحمل وإن لم يكن حالك كله صبر ورضا وتحمل فإن ذلك سيعني رجوعك عن طريقك وخسارتك، ثم إنه لا يشك أحد يا أخي في أن هذه وسيلة من وسائل طواغيت أهل الأرض ليتراجع المسلم عن دعوته وليعلن للملأ خطأه، ولكنك لو تفكرت قليلاً وجدت أنك حتى وإن أعلنت تراجعك فإنك أولاً ستخسر ثباتك على دينك، وستخسر نصرة أهل الدين لك، ومهما قدمت من تنازلات؛ فلن يرضى عنك طواغيت أهل الأرض إلا بتركك انتمائك لدينك.

---

(1) الابتلاء والمحن في الدعوات، محمد أبو فارس صـ٨٣.

الومضة الرابعة:

ضريبة الثبات على المبدأ

إن نعمة الهداية نعمة لا تقدر بثمن، ويعقب هذه النعمة نعمة الثبات عليها والاستمرار فيها والخوف على النفس من الانتكاسة التي تعني الرجوع عن الدين أو إحداث التغيير على النفس، وفي ثباتها بعد أن كانت متمسكة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فتصبح بعد الانتكاسة مخالفة أو مفرطة، ومن يتفكر في حالنا – غفر الله لنا وللجميع – يجد أن هذه الانتكاسة لا تأخذ طريق الردة أو المخالفة التامة للكتاب والسنة، ولكنها تأخذ طريق عدم الثبات والقدرة على التلون ومسايرة كل ما يستجد ويظن الظان منا أنه على طريق الاستقامة وهو في حاله لا يملك من الاستقامة إلا الشكل الظاهري، وما كان ذلك ليكون إلا نتيجة إهمال الروح وعدم تربيتها على العبادات وتعويدها على الثبات على المبدأ الصحيح.. تعويدها على أن في الدين ثوابتَ لا تقبل التغيير أو التبديل، لا تقبل التنازل عن الدين بحجة مسايرة الواقع والأحداث مع محاولة الاندماج مع الأوضاع الراهنة التي قد نبث في النفس الخور والعجز والشعور بالهوان والضعف ومن ثم التراجع عن كل ما هو ثابت في الأصل.

إنني هنا يا رفيقي لا أدعوك إلى التشدد وترك المرونة في التعامل سواء مع الأفراد أو مع الأحداث، وإنما أدعوك إلى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فالتمسك بهما مع الأخذ بالأسباب ما هو إلا

سيما الصالحين المتقين الذين يسعون لتطبيق شرع الله على أرضه ويطلبون في ذلك الأجر والمثوبة قال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾** [الأعراف: ١٧٠].

أدعوك إلى أن تعرف أن الثبات حتى الممات أمر ليس بالهين، كما أن له ضريبة لابد وأن تؤخذ من أولئك المتمسكين على دينهم والذين كثيرًا ما نرى صور محاربتهم واضطهادهم.

إن الواقع الآن يشهد ثورة عارمة على المسلمين بشكل عام، ثورة على المتمسك منهم وغير المتمسك بدينه، ثورة يقوم بها أعداء الإسلام والمسلمين ومن يتابع الأحداث يشهد بظلمهم وطغيانهم الذي يظهر في صورة نسبة كل عمل واعتداء إلى الإسلام والمسلمين، ويتخذون من ذلك مسوغًا وحجة للمطاردة والحرب، وما أشد ما نرى صورة تلك المحاربة على أهل الإسلام سواء كانت قولية أو فعلية، ولا يختلف أحد في أن هذه المحاربة قد توقع في النفس الخوف وتزعزع ما فيها من رواسخ وثوابت، والسبب أننا نحن الضعفاء نحن المضطهدون نحن... ونحن... ونحن... وهذا ما يريده أعداء الأمة.

وأنا هنا يا رفيقي أدعوك إلى أن تسلك طريق الثبات وقبل أن تسلكه دع لنفسك مجالاً لتعرض أقوالك وأفعالك على كتاب الله عزَّ وجلَّ وسنة رسوله ﷺ فإن رأيت منها الموافقة لهذين المصدرين؛

فاحمد الله على نعمة التوفيق والثبات، وإن رأيت منها غير ذلك فحاسبها وأعد المسار وصححه، ثم لتوطن نفسك على أن من يلتزم بهذا الدين لابد له أن يحارب ويضطهد، لابد له أن يجني ضريبة ثباته على دينه، ولتعلم أن الصادق الثابت لن يضره اختلاف أعدائه عليه، فدعوته مستمرة وطريقه واحد ثابت حاله كحال ذلك الرجل المجاهد الذي هدده المستعمر بإغلاق مسجده فقال: «لا تستطيع! قال وكيف؟ فقال: إذا كنت في عرس علمت المحتفلين، وإذا كنت في مأتم وعظت المعزين، وإذا جلست في قطار علمت المسافرين، وإذا دخلت السجن أنرت المسجونين، وإن قتلتموني ألهبت مشاعر المواطنين، وخير لكم ألا تتعرضوا للأمة في دينها»[١].

(1) باقات وزهور في حكايات المسلمين العطرة إبراهيم نعمة صـــ٤٧.

الومضة الخامسة:

لا تحزن على الإسلام

تمضي الحياة بالمؤمن – يا رفيق درب الهدى – وهو متمسك يدينه معتز به لا يرضى بدين غيره، وهو مع ذلك يسعى لخدمته ولإعلاء كلمة الله على أرضه فيرى وهو في طريقه فئات من الناس، منها المؤمن الموحد الذي يظل متمسكًا بدينه مهما كانت الظروف ومهما تغيرت الأزمان، ويرى على النقيض من ذلك فئة تموج بها الحياة بأمواجها المتلاطمة وتعصف بها الرياح المهلكة شر عصف فلا تلبث أن تراها إلا وهي في شك من سلامة هذا الدين وعزته، وأن النصر لهذا الدين مهما علت كلمة الباطل وقويت، ويخالط ذلك صروف من غربة دين حيث البعد عنه والتنازل عن بعض أساسياته ومحاولة استرضاء العدو والحرص على الاندماج معه ولماذا؟ لأنه هو المنتصر وهو القوي والذي يمتلك ويحارب ويقف أمام كل من يعارضه ليحطمه ويزيل ملكه ولا يضره شيء، ويتبع ذلك الاسترضاء يا رفيق درب الهدى لدى هذه الفئات الحرص على تلقي أفكار الغرب من غير تمحيص أو تفكير؛ بل ربما يحصل التفكير ببطلان أفعالهم وتصرفاتهم؛ لكن هذا التفكير سرعان ما يتلاشى حتى لا يسبب ذلك تعكير صفو الحياة وسعادتها الزائفة.

كل هذا التناقض – يا صاحبي – يشعر المسلم بغربة شديدة تسبب له الحزن والقلق، إذ كيف يغرب أهل الدين المتمسكون به

ويعذبون ويضطهدون وتصادر أموالهم وكامل أملاكهم بل ويحرمون من حقوقهم كبشر مع ادعاء تلك الأمم الكافرة الغربية بحرصها على إعطاء كل إنسان حقوقه تحت مظلة (منظمة حقوق الإنسان)...

نعم يا صاحبي حزن على أهل الكتاب والسنة، وحزن يقابله على غربة الدين إذ أصبح المسلم يجد نفسه حتى وإن كان لا يطبق الإسلام تطبيقًا حرفيًّا إلا أنه يمتلك قدرة على تطبيق سنة الرسول ﷺ في تصرفاته وأفعاله وسائر عمله ومع تطبيقه هذا يجد حربًا واستنكارًا؛ بينما أولئك الذين يعبثون بقيم الإسلام وآدابه ويفتنون خلق الله وعباده لا تستنكر فعالهم ولا ترد شبهاتهم، وإن حصل الرد فلأجل الحرص على منع ثورات الشعوب المسلمة التي لا يزال بعضها بحمد الله متمسكًا به وحريصًا عليه وعلى نشره.

كل هذا قد يمر بك يا رفيقي وبغيرك من الغيورين على هذا الدين فتحزن وتألم وتتذكر مع ازدياد بُعْدِ المسلمين عن هذا الدين قول الرسول ﷺ: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود كما بدأ غريبًا، فطوبى للغرباء**»[(١)].

ولعظيم الفائدة التي أذكر نفسي بها وأذكرك أنت معي بها فإني أسوق كلامًا نفيسًا لابن تيمية – رحمه الله تعالى – حول هذا

(1) رواه مسلم في كتاب الإيمان، الباب الخامس والستون، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، وأنه يَأْرِزُ بين المسجدين، حديث رقم: (٢٣٢) الجزء الأول صـ١٣٠.

الحديث كلامًا طيبًا يعطي القلب والعقل راحة وشعورًا بأن هذه الغربة لن تدوم بإذن الله عزَّ وجل.

يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في هذا الحديث: «**في قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح. «بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود كما بدأ غريبًا، فطوبى للغرباء»** لا يقتضي هذا أنه إذا صار غريبًا يجوز تركه – والعياذ بالله -! بل الأمر كما قال تعالى: **﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾** [آل عمران: ٨٥].

وقال تعالى: **﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ﴾** [آل عمران: ١٩].

وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾** [آل عمران: ١٠٢].

وقال تعالى: **﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾** [البقرة: ١٣٠-١٣٢] إلى أن قال: ولهذا لما بدأ الإسلام غريبًا لم يكن غيره من الدين مقبولاً؛ بل قد ثبت في الحديث الصحيح – حديث عياض بن حمار – عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم -عربهم وعجمهم- إلا بقايا من أهل الكتاب..» الحديث.

ولا يقتضي هذا أنه إذا صار غريبًا أن المتمسك به يكون في شر؛ بل هو أسعد الناس كما قال في تمام الحديث «فطوبى للغرباء» و«طوبى» من الطيب قال تعالى: ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٩]، فإنه يكون من جنس السابقين الأولين الذين اتبعوه لما كان غريبًا وهم أسعد الناس؛ أما في الآخرة فهم أعلى الناس درجة بعد الأنبياء عليهم السلام.

وأما في الدنيا فقد قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** [الأنفال: ٦٤] أي: أن الله حسبك وحسب متبعك. وقال تعالى: **﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾** [الأعراف: ١٩٦]، وقال تعالى: **﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾** [الزمر: ٣٦]، وقال: **﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** [الطلاق: ٢، ٣]، فالمسلم المتبع للرسول الله تعالى حسبه وكافيه وهو وليه حيث كان ومتى كان.

ولهذا يجد المسلمون المتمسكون بالإسلام في بلاد الكفر سعادة عظيمة كلما كانوا أتم تمسكًا بالإسلام، فإن دخل عليهم شر؛ كان بذنوبهم حتى إن المشركين وأهل الكتاب إذا رأوا المسلم القائم بالإسلام عظموه وأكرموه وأعفوه من الأعمال التي يستعملون بها المنتسبين إلى ظاهر الإسلام من غير عمل بحقيقته لم يكرم.

وكذلك كان المسلمون في أول الإسلام وفي كل وقت، فإنه لا بد أن يحصل للناس في الدنيا شر، ولله على عباده نعم، لكن الشر الذي يصيب المسلم أقل، والنعم التي تصل إليه أكثر، فكان المسلمون في أول الإسلام وإن ابتلوا بأذى الكفار والخروج من الديار فالذي حصل للكفار من الهلاك كان أعظم بكثير، والذي كان يحصل للكفار من عز أو مال كان يحصل للمسلمين أكثر منه حتى من الأجانب. فرسول الله ﷺ - مع شدة أذى المشركين له – كان الله يدفع عنه ويعزه ويمنعه وينصره من حيث كان أعز قريش، ما منهم إلا من كان يحصل له من يؤذيه ويهينه من لا يمكنه دفعه؛ إذ لكل كبير من يناظره ويناويه ويعاديه، وهذا حال من لم يتبع الإسلام؛ يخاف بعضهم بعضًا ويرجو بعضهم بعضًا.

وأتباعه الذين هاجروا إلى الحبشة أكرمهم ملك الحبشة وأعزهم غاية الإكرام والعز، والذين هاجروا إلى المدينة فكانوا أكرم وأعز.

والذين كان يحصل لهم من أذى الدنيا كانوا يعوضون عنه عاجلاً من الإيمان وحلاوته ولذته ما يحتملون به ذلك الأذى. وكان أعداؤهم يحصل لهم من الأذى والشر أضعاف ذلك من غير عوض لا آجلاً ولا عاجلاً إذ كانوا معاقبين بذنوبهم.

وكان المؤمنون ممتحنين ليخلص إيمانهم وتكفر سيئاتهم؛ وذلك أن المؤمن يعمل لله فإن أوذي احتسب أذاه على الله وإن بذل سعيًا أو مالاً بذله لله فاحتسب أجره على الله.

والإيمان له حلاوة في القلب ولذة لا يعادلها شيء ألبتة. وقال النبي ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذا أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار**» [أخرجاه في الصحيحين].

وفي صحيح مسلم: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًّا**».

وكما أن الله نهى نبيه أن يصيبه حزن أو ضيق ممن لم يدخل في الإسلام في أول الأمر فكذلك في آخره؛ فالمؤمن منهي أن يحزن عليهم أو يكون في ضيق من مكرهم.

وكثيرٌ من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من أحوال الإسلام؛ جزع وكلَّ وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهيٌّ عن هذا؛ بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى، وأن ما يصيبه فهو بذنوبه فليصبر إن وعد الله حق وليستغفر لذنبه وليسبح بحمد ربه بالعشي والإبكار.

وقوله ﷺ: «**ثم يعود غريبًا كما بدأ**» يحتمل شيئين:

أحدهما: أنه في أمكنة وأزمنة يعود غريبًا بينهم ثم يظهر كما كان في أول الأمر غريبًا ثم يظهر. ولهذا قال: «**سيعود غريبًا كما بدأ**» حتى لما بدأ كان غريبًا لا يعرف ثم ظهر وعرف؛ فكذلك

يعود حتى لا يعرف ثم يظهر ويعرف فيقل من يعرفه في أثناء الأمر كما كان من يعرفه أولاً.

ويحتمل أنه في آخر الدنيا لا يبقى من المسلمين إلى قليل، وهذا إنما يكون بعد الدجال ويأجوج ومأجوج عند قرب الساعة، وحينئذ يبعث الله ريحًا تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة ثم تقوم القيامة.

وأما قبل ذلك فقد قال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة**» وهذا الحديث في الصحيحين ومثله من عدة أوجه.

فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لا تزال طائفة من أمته على الحق أعزاء لا يضرهم المخالف ولا خلاف الخاذل. فأما بقاء الإسلام غريبًا ذليلاً في الأرض كلها قبل الساعة فلا يكون هذا أبدًا بإذن الله.

وقوله ﷺ: «**ثم يعود غريبًا كما بدأ**» أعظم ما تكون غربته إذا ارتد الداخلون فيه عنه وقد قال تعالى: ﴿**مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ**﴾ [المائدة: ٥٤]، فهؤلاء يقيمونه إذا ارتد عنه أولئك.

وكذلك بدأ غريبًا ولم يزل يقوى حتى انتشر، فهكذا يتغرب في كثير من الأمكنة والأزمنة ثم يظهر حتى يقيمه الله عزَّ وجلَّ كما

كان عمر بن عبد العزيز لما ولي؟ قد تغرب كثير من الإسلام على كثير من الناس حتى كان منهم من لا يعرف تحريم الخمر فأظهر الله به في الإسلام ما كان غريبًا.

وفي السنن: «**إن الله يبعث لهذه الأمة في رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**» والتجديد إنما يكون بعد الدروس وهو غربة الإسلام.

وهذا الحديث يفيد المسلم أنه لا يغتم بقلة من يعرف حقيقة الإسلام، ولا يضيق صدره بذلك، ولا يكون في شك من دين الإسلام كما كان الأمر حين بدأ قال تعالى: ﴿**فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ**﴾ [يونس: ٩٤]، إلى غير ذلك من الآيات والبراهين الدالة على صحة الإسلام»[1].

وبعد أن أبحرت يا رفيقي مع ومضة أمل لمن سأل عن الثبات في زمن المتغيرات

وبعد أن أبحرت يا رفيقي مع هذه الومضات التي حرصت فيها على تقوية الإيمان بالله والتعاون على الخير من باب شد العضد والتآزر في فعل الخير فإني أدعوك – ونفسي – إلى لحظات ساكنة كلها أمل بل كلها أمن وأمان ولذة في طاعة الرحمن.

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية – طيب الله ثراه – جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي – المجلد الثامن عشر صـ٢٩١.

أدعوك إلى ساعة سحر تقوي من مفعول هذه الومضات وترفع من معدلها في بنك الصبر والثبات.

أدعوك إلى ذلك وكلي أمل أن تكون عند حسن ظني بك!! نعم فوالله إن الفجر لقريب، وإن حال الأمة سيتغير ويتبدل ويكون النصر، وكما قال شيخ الإسلام – رحمه الله -: لن يكون إلا بعد الدروس، بعد البلاء، بعد التمحيص، بعد الثبات، وأسأل الله أن يقيض من عباده الصالحين من يكون ناصرًا لدين الله ومعليًا لكلمته وموجهًا لها في هذا الزمن، وكلنا أمل أن تكون أنت يا رفيق درب الهدى واحدًا منهم.

وقبل أن أختم فإني قد خاطبت في كلماتي (رفيق الدرب) ولا أحدد به جنسًا بعينه فما ينطبق على الرجل ينطبق على المرأة بحسب طبيعة كل واحد منهما، وكما قلت فكل في مكانه وفي ميدانه يستطيع أن يؤدي دوره، ولا يشترط أن يشار إليه بالبنان أو أن يذكر على كل لسان، ولكن يكفي أن يعلم بعمله الرحيم الرحمن.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

* * *